التطور فى الأديان

obeikandl.com

obeikandl.com

التطور فى الأديان

ساد فى أوساط المهتمين بالأبحاث الدينية – قبل ظهور رأى داروين – رأى يحمل فى طياته نظرية التطور ، ذلك أن الباحثين رأوا – وما زال الكثير منهم – أن كل نبى كان يبعث إلى قومه برسالة تتناسب مع درجة تطورهم ، إلى أن جاء محمد ﷺ برسالة عامة إلى كل الناس ، وعليه فهناك اختلاف بين الرسالات فى التشريع ، وليس فى العقيدة ، فمبادئ العقيدة واحدة فى كل الرسالات ، أما التشريعات فمختلفة باختلاف درجة تطور المجتمع الإنسانى ، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى : 13]

هذا فى العقيدة .

وقوله : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [المائدة : 48]

وهذا فى التشريع .

ولما سادت نظرية التطور فى مجال الأبحاث عبر عنها فى مجال تطور الرسالات السماوية – وإن كان مقصده مجال التشريع ، لا مجال العقيدة – أحد علماء القرن التاسع عشر ، وهو الشيخ محمد عبده بقوله :

" إن الأديان خاطبت الحس يوم كانت الإنسانية فى دور الطفولة ، لا يعرف الإنسان فيها إلا ما يقع تحت حسه ، ولا يتناول بذهنه من المعانى ما لا يقرب من لمسه ، فلما سار ركب الإنسانية ، وجربت ، واتفقت ، وتقلبت فى السعادة والشقاء أياماً وأياماً ، ونما بها الوجدان ، وبددت العواطف ، جاء دين يتحدث عن الزهادة ، وعن الصفاء وملكوت الله ، ولكن الإنسانية فى صراعها لم تستطع أن تعيش على الإيثار ، ولم يطل مقامها فى الصفاء ، فراحت تتعارك ، وحلت القطيعة محل التراحم ، والتخاصم مكان المسالمة ، فجاء دين ينظم الشئون كلها ، ويرعى الحس والعاطفة ، ويدرس القلب والعقل ، وينظم للناس شئون دنياهم وآخرتهم، وهذا هو الإسلام " .

غير أن من جاءوا بعده تحدثوا عن التطور فى الرسالات السماوية ، دون أن ينصوا على ما قصدوه بالتطور ، أهو فى مجال التشريع فقط ، أم فى مجال العقيدة أيضاً ؟ لكننا نلاحظ أن أدلتهم توحى بأنهم يرون أن التطور حدث فى المجالين ، إذ أنهم يذهبون إلى أن الرسالات السماوية لم تكن واحدة ، بل تطورت مع الجنس البشرى . وبناءً عليه فقد قسموا الأديان إلى ثلاثة أقسام :

الأول : نزل ملائماً للجنس البشرى فى " طفولته " ، وتبدو ملامح هذه المرحلة فى :

- أن الدعوة كانت محدودة بقوم الرسول .
- أن ما تضمنته الرسالة فى هذه المرحلة كان فى حدود ضيقة ، دون تنظيمات وتفريعات فى جوانب الحياة المختلفة .
- أنه لم يكن للدعوة فى تلك المرحلة كتب واضحة ، بل كانت بضع نصائح ومواعظ عامة .
- أننا لم نعرف لأديان هذه المرحلة تواريخ ، إذ لم يُحَدَّد – مثلاً – العصر الذى أرسل فيه نوح ، أو هود ، أو إبراهيم .....إلخ

الثانى : نزل فى مرحلة " صبا البشرية " ، وتبدو مظاهره فيما يلى :

- دخلت الدعوة بعض التفصيلات والتشريعات .

- أصبح للدعوة كتاب ، مثل : التوراة والإنجيل .
- وجدت فى هذه المرحلة تواريخ ولكنها غير دقيقة .

الثالث : نزل فى مرحلة " شباب الجنس البشرى " ، وله ملامح خاصة هى :

- اتضحت وحدانية الله ، وحُطِّمت الأصنام ، وفُتِح بالإسلام عهد جديد ، لا يقبل الشرك بأى صورة من صوره ، فالإسلام " فكرة تامة " لا تسمح لعارض من عوارض الشرك .
- أصبحت الدعوة عامة لكل البشرية ، وأصبح محمد ﷺ رسولاً للناس كافة .
- خُتِمَت الرسالات بمحمد ﷺ .
- دين الإسلام شامل لأمور الدين والدنيا .

غير أن هذا الرأى قوبل بمعارضة شديدة ، بل إن بعض المعارضين أنكروا حدوث أى تطور فى المجالين : العقيدة والشريعة . واستدلوا على ذلك بـــ :

- أن ما يحدث من تطور إنما هو فى مجال الحياة المادية ، أما عقلية الإنسان فلم تتطور – على الأقل فى هذه الفترة التاريخية – بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، بل ما يسمونه تطوراً للعقل البشرى إنما هو مظهر من مظاهر زيادة المعلومات ، وليس تطوراً فى ذات العقل ، إذ لا يوجد دليل واضح على أن العقل قد تطور فسيولوجياً ، أو أن قوة الإدراك قد تطورت ، اللهم إلا فى نطاق ما تفرزه زيادة المعلومات فى عملية التفكير الإنسانى .
- بأن عدم ظهور كتب فيما يسمونه " طفولة الجنس البشرى " يحتمل أن يكون راجعاً إلى فقدانها .
- كما أن عدم ذكر التاريخ ليس دليلاً على تدرج الرسالات السماوية ، لأن الوحى السماوى لا يعنى بذكر التواريخ ، بل ينصب اهتمامه على ما يُقَوِّم سلوك الناس ، ويصلح شئون حياتهم ، ولا يحتاج تحقيق هذا الهدف إلى ذكر تواريخ .

- أما ما ذُكِر من عدم وجود تفصيلات وتفريعات فى المرحلتين الأوليين ، فلا يُعَدّ ذلك دليلاً على التطور ، لأن عدم وجودها قد يرجع إلى اندثارها .
- وأن قول " التطوريين " :بأن مرحلة " شباب الجنس البشرى " لم تتضح فيه معالم الوحدانية " ينطوى على اتهام للرسل السابقين بأنهم لم يوضحوا قضية الوحدانية ، ولم يحطموا الأصنام ، فى حين أن القرآن الكريم تحدث عن جهود الأنبياء فى بيان وحدانية الله بصورة واضحة ليس فيها غموض ولا تورية .

فلو استعرضنا ما قاله القرآن الكريم لأقوامهم ، لظهر لنا وضوح دعوتهم إلى وحدانية الله وترك عبادة الأصنام ، فنوح عليه السلام قال لقومه : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الشعراء : 107 -108] . وقال هود عليه السلام لقومه :﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأعراف : 65] ، وكذلك قال صالح عليه السلام .

كما حطم إبراهيم عليه السلام الأصنام بيده ، يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأنبياء : 51 – 58]

obeikandi.com

ألا يدل هذا على وضوح الدعوة إلى وحدانية الله ، ونبذ عبادة الأصنام ؟ ثم ألا يُعَدّ ما فعله إبراهيم ﷺ تحطيماً للأصنام دليلاً واضحاً على وضوح الوحدانية فى دعوته ؟

فالقول بأن ما يميز المرحلة الثالثة — طبقاً لما يرونه من تقسيم تاريخ الأديان السماوية إلى مراحل — هو وضوح وحدانية الله ، وتحطيم الأصنام ؛ لا يستند إلى دليل ، بل إن آيات القرآن الكريم تثبت خلافه ، ألا وهو أن هذه كانت السمات العامة لكل الرسالات من لدن آدم حتى محمد ﷺ : وضوح الدعوة إلى وحدانية الله ، ومحاربة كل صور الشرك وعبادة الأوثان ، يقول تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى : 13] ، ويقول : ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [فصلت : 43] .

ويبدو أن السبب فى وقوع العلماء فى هذا الخطأ ، هو أنهم قارنوا بين القرآن الكريم فى وضوح الوحدانية فيه ، وحربه على عبادة الأوثان ، وبين ما فى نصوص الكتاب المقدس الموجود بين أيدينا من خلط فى مفهوم تصور وحدانية الله ، ومهادنة لبعض صور الشرك ، أو قبول ما يوحى به . فهذه المقارنة قائمة على أساس غير سليم ، إذ لا تجوز المقارنة بين وحى الله ، وما كتبه البشر ، الذى خلط فيه بين ما هو صالح ، وآخر سيء ، ويتنافى مع ما نزل على الرسل السابقين .

ونرى أن القول بالتطور فى الرسالات السماوية ظهر فى الأوساط الفكرية متأثراً بنظرية داروين ، التى لم تسلم من النقد والتجريح — وإن كان له سند من آراء من سبقوا داروين ، فلا يعتبر دليلاً على صحته — ، ولذا لا يجوز أن يسلم به علماء المسلمين ، لأن رأيهم فى

تطور الرسالات السماوية يتنافى مع الواقع ، لأن من ينظر إلى عملية التطور يرى أنها ذو شقين :

الأول : تطور فى أساليب الحياة المادية ، إذ انتقلت حياة الإنسان من بدائية ، لم يستعمل فيها إلا أدوات بسيطة ، كانت من الحجر فى بادئ الأمر ، ثم تطورت إلى مادة ثانية وثالثة ... و ... و ... إلخ

كما انتقل معظم الناس من سكن الكهوف والمغارات إلى البيوت البسيطة ، ثم إلى العمارات الشاهقة فناطحات السحاب بكل ما فيها من آلات تعمل بالطاقة على اختلاف مصادرها ، كذلك تطورت وسائل المواصلات حتى بلغت السفن الفضائية .

فإذا كان هذا مقصدهم بالتطور ، فإن الإسلام لن يكون هو خاتم الرسالات ، لأن البشرية قطعت فى هذا السبيل منذ ظهر الإسلام حتى الآن أضعافاً مضاعفة لا يمكن مقارنتها بما قطعته بين موسى وعيسى ، أو بينهما وبين محمد ﷺ ، الأمر الذى حتم – بناءً على رأيهم – أن تأتى رسالة محمد ، لأن مرحلة موسى وعيسى عليهما السلام كانت قد انتهت .

الشق الثانى من التطور : هو تطور عقلية الإنسان ، ومن المشاهد أن التطور فى هذا الجانب ليس تطوراً بالمعنى الذى يقصدونه من التطور ، ذلك أنه لا فرق بين عقلية إنسان يعيش فى القرن الواحد والعشرين ، وآخر يعيش فيما قبل الميلاد ، إلا فى زيادة كمية المعلومات التى حصل عليها ابن القرن الواحد والعشرين نتيجة التجارب البشرية .

أما التطور فى ذات العقل فلا دليل عليه ، بل هناك شواهد فى حياتنا المعاصرة تنفى هذا ؛ إذ لو قارنا بين أخوين شقيقين ، أحدهما أخذ قسطاً كبيراً من الثقافة المحلية والعالمية ، حتى وصل إلى درجة مرموقة فى مجال الفكر العالمى ، والآخر ظل مقيماً فى بيئته ، لم يذهب إلى مدرسة ، ولم يتعلم إلا حرفة الآباء والأجداد ، فالأول على رأى من يقول بنظرية التطور يمثل مرحلة " شباب الجنس البشرى "، والثانى يمثل مرحلة " الصبا " ، وربما مرحلة " طفولة الجنس البشرى" ، وهذا لا يقبله عقل ، فالإثنان فى درجة واحدة من القوة الكامنة فى العقل

openkandil.com

وقد يكون من حُرِمَ من التعليم أكثر ذكاءً من الذى تعلم - ، غاية الأمر أن الذى تعلم أتيحت له فرصة إظهار ما كمن فى عقله من قوة على الفهم والإدراك ، وكان ذلك نتيجة ما حصله من معلومات .

فلو اعتبر القائلون بنظرية التطور هذه الظاهرة تطوراً ، للزم على هذا التسليم بأن درجة التطور فى القرن الواحد والعشرين فاقت — بمراحل عدة — درجة التطور فى القرن السابع الميلادى ، حين نزلت رسالة الإسلام على محمد ﷺ ، الأمر الذى يتطلب رسالة جديدة .

ولهذا ينبغى علينا طرح فكرة تطور الأديان السماوية بعيداً ، وعدم قبول أى صورة من صورها ، فدين الله واحد ، ورسالة الأنبياء واحدة ، وخصائص دعواتهم متطابقة :

- ففى دائرة الألوهية دعَوْا كلهم إلى عبادة الله وحده ، وترك عبادة الأوثان والأصنام .
- كما بينوا للناس أن الله هو المسيطر على كل ما فى الوجود ، فهو واهب الحياة ، وهو الذى يكفل الرزق لعباده ، وسوف يحاسب كل إنسان على ما فعله فى هذه الحياة الدنيا .
- كما وضح من سيرتهم أن موقف الأعداء منهم كان واحداً ، فقد كانوا مصرين على عبادة آلهتهم من دون الله ، وأنكروا البعث ، واستخفوا بوعد الله .

هذه هى الملامح الرئيسية لكل الرسالات السابقة ، كما ذكرها القرآن الكريم ، فليس فيها ما يشير إلى تطور ، أو اختلاف واحدة عن الأخرى ، لأن الكل من عند الله وهو واحد ، كما أنهم أرسلوا جميعاً للإنسان باعتباره بشراً ، فجميع الأجناس تشترك فى الخصائص البشرية ، ولذا يجب عليهم الإيمان برسالة الإسلام ، لأنها لهم جميعاً من حيث هم بشر ، جاءتهم من الله ، وهو خالق الناس جميعاً ، يقول الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [النساء : 170]